

الحكمة في الصرف عن المطالبة بالمعجزات المادية إلى معجزة القرآن الكريم:

ولعلنا لا نستغرب عند ما نجد القرآن الكريم يصرف أنظار قريش المطالبين بالآيات المادية وغيرها من المقترحات يلفت أنظارهم إلى ما هو الأجدى والأليق والأرحم قال تعالى: (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدًا كَمَا أَنْزَلْتَ عَلَىٰ الْبَنِي إِسْرَائِيلَ) (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُنْفِثُ الْبُسُوفَ فِيهَا كَمَا أَنْزَلْتَ عَلَىٰ الْبَنِي إِسْرَائِيلَ) (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا^(١) أَوْ تَأْتِيَنَا بِالسَّمَاءِ الْحَمِيمِ) (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْفٍ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ فَلَمْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) الإسراء . وقال سبحانه وتعالى: (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نَنْزِلُكَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسُفُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥) الحجر .

إن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن السهل الميسر الهين عليه أن يلبي جميع المطالب، ولكن لم يشأ ذلك لحكم:

الحكمة الأولى: لأنهم غير جادين بهذه المطالب، ولو لببت لهم لما آمنوا لان قصدهم هو التعجيز كما أشارت الآية الكريمة السابقة: (... وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥) الحجر: ١٤ - ١٥ . فمن العبث عندئذ اتباع أهوائهم ورغباتهم ولو اتبع الحق أهوائهم ففسدت السموات والأرض.

وأسلوب التعجيز هو أكثر أساليب المشركين في التعنت والعناد دفعا لعدم الايمان والتصديق برسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ومن سبقه من الانبياء والرسل (عليه السلام).

روى ابن هشام في السيرة النبوية على صاحبها وأله أفضل الصلاة والسلام قال: (اجتمع أشرف قريش بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض: ابعدوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتهم فجاءهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سريعا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم، ويعز عليه عنهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لتكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ... فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» .. قالوا يا محمد: فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضييق بلدا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشا منا، فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، ويبسط لنا في بلادنا، ويفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث من مضي من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك، وصنعت ما سألناك، صدقتك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول، فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين: «ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم»، قالوا: فإذا لم تفعل لنا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جناحا وقصورا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم، وتلتمس المعاش كما تلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم، فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما أنا بفاعل وما أنا الذي يسأل ربه هذا» .. قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل .. فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل ...» . فلما قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قام معه ابن عمته عبد الله بن أبي أمية، قال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ... فوالله لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ سلما إلى السماء ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك ما

^١ الكسف : جمع كسفة وهي القطعة من العذاب . ينظر : نزهة القلوب : السجستاني ص ١٦٦ .

ظننت أني صدقتك. ثم انصرف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)»^(١). فهذه سبعة مطالب تعجيزية جاءت دفعة واحدة واضح منها المرء والعناد في مطالبهم، ولو أن هذه الخوارق وقعت كما اقترحوا ما كانت بالتالي تقتعهم، فإن الله يضل من يشاء فلا يؤمن ولو أجيب إلى ما يقترحه من الآيات، ويهدي إليه من أناب فيؤمن بغير اقتراح آيات. إن مطالبهم كانت بقصد التعجيز ولو لبّيت لانتقلوا إلى غيرها، ومواقفهم العنادية كانت تحتاج إلى تبرير للاستمرار عليها يقول تعالى: (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنْتِنَاهُمْ بِبُكَرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ) (٧١) [المؤمنون: ٧١]. إن كون القرآن بلسانهم وأسلوبهم فيه رفع لمقامهم وإعلاء لمكانتهم بين الناس ولكنهم يعرضون عن هذه المزية لعدم إدراكهم لقيمتها وحقيقتها كما قال تعالى: (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (١٠) الأنبياء. قال أهل التفسير عن هذه الآية:.....

وقد حذر الله المؤمنين من مشابهة المشركين، وأهل الكتاب من قبلهم كما قال تعالى: (أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبد الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) (البقرة: ١٠٨). قال ابن كثير (ت) (المراد أن الله ذم من سأل الرسول (صلى الله عليه وآله) عن شيء على وجه العنت والافتراح، كما سئلت بنو إسرائيل موسى (عليه السلام) تعنتا وتكديبا وعنادا)^٣

الحكمة الثانية في هذا الصرف عن المعجزات المادية:

إظهار مكانة القرآن الكريم، وأن المعجزات المادية تتضاءل بجانب معجزته فهو المعجزة الباقية الخالدة إلى يوم القيامة. والرسالة الشاملة الباقية لا بد لها من معجزة توائم خلودها وشمولها، فكان في هذا الالتفات والصرف عن المعجزات المادية إلى المعجزة الفكرية رفع لشأن الأمة من جهة وإبراز لميزات القرآن العظيم وبيان مكانته الرفيعة من جهة أخرى قال تعالى: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمْتَالُ تُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (٢١) [الحشر: ٢١]، وقال عز وجل: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (٣٧) أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استنظعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٣٨) بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فأنظروا كيف كان عاقبة الظالمين (٣٩) [يونس: ٣٧ - ٣٩].

الحكمة الثالثة: كان في هذا الصرف رحمة بهم، فقد جرت سنة الله سبحانه وتعالى في رسالاته إلى الناس أن القوم إن أجبوا إلى مطالبهم من المعجزات المادية الباهرة القاهرة ثم نكسوا على أعقابهم فكفروا بعد ذلك، جرت سنة الله أن يكون العذاب المستأصل حطهم في الدنيا والعذاب المهين مصيرهم في الآخرة.

وهذا ما يتجلى في الآيات التي تحكي مصائر الأمم والشعوب:

- (وإلى ثمود أحاهم صالحاً قال يا قوم اغبثوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) (٧٣) [الأعراف: ٧٣].

- (ولقد جاء آل فرعون النذر (٤١) كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) (٤٢) [القمر: ٤١ - ٤٢].

- (إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل نستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين (١١٢) قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين (١١٣) قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين (١١٤) قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) (١١٥) [المائدة: ١١٢ - ١١٥].

فلو أعطيت قريش ما سألوه من الآيات وجاءهم بما اقترحوا ثم كذبوا لم يلبثوا، ولكن الله أكرم محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) في الأمة التي أرسله إليهم، إذ قد سبق في علمه أن يكذب به من يكذب ويصدق من يصدق، وابتعثه رحمة للعالمين برّ وفاجر، أما البرّ فرحمته إياهم في الدنيا والآخرة، وأما الفاجر فإنهم آمنوا من الخسف والغرق وإرسال حاصب عليهم من السماء كذلك قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١٠٧) [الأنبياء: ١٠٧].

وإلى هذه الحكمة تشير الآية الكريمة عند صرف القوم عن المعجزات المادية إلى معجزة القرآن الكريم في قوله تعالى: (وقالوا لولا أنزل علينا آيات من ربّه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين (٥٠) أولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون (٥١) [الأنبياء: ٥٠ - ٥١].

^٢ السيرة النبوية لابن هشام ٣٦ / ٢، وينظر: أساليب المجرمين في التصدي لدعوة المجرمين وعاقبة ذلك في

ضوء القرآن الكريم: محمد بن عبد العزيز بن عبد الله المسند، مؤسسة الرسالة ناشرون: ص ٢٦٢ - ٢٦٣م

^٣ تفسير القرآن العظيم: ١٥٢/١.

إن في هذا الصرؑ رحمة الله بهم ليدخل بعضهم في الإسلام أو يخرج من أصلابهم من تتفتح بصيرته لنور الحق والهداية.